السيد توفيق البكرى

أدبه وشاعريته

فى ذمة الله ، لقد فارقنا هذا الاديب الكبير منذ أيام قلائل عائداً الى التراب ، فأكرم الله وفادته ، ورفع فى منازل الأبرار مقامته .

بكينا الراحل العزيز فَشطرٌ من الدمع لحادثة الفراق ، وشَطرٌ للأدب العربى يهوى عَلَمٌ من أعلامه الكبار فى جوف الأبد القاتم الأعماق ، ففى ذمة الله يا محمد .

كلمة فى الأدب الحديث

من الانصاف قبل أن نعرض لأدب الفقيد العزيز السيد محمد توفيق البكرى وشاعريته ، أن نتحدث قليلاً عن الأدب الحديث ، وكيف أن الأديب الواحد أو الشاعر الواحد من أهل هذا الأدب قد يقع بين حكمين مختلفين ، لا فى عامة شعره — فذلك شأن عام — ولكن لاختلافه هو فى ذاته ، وتقلّبه فى صورتين متباينتين تقوم كل صورة منهما فى ناحية من حياته ، فمن الادباء والشعراء من تقوى مواهبه يوماً بعد يوم ، وتتسع موارده على توالى الزمن وتعاقب الايام ، ومنهم الذى يقصر به الطبع ، وتحتبسه المكنة ، فيقف حيث وقف سواه من جماعة العاجزين وفريق المتخلفين ، ومنهم الذى يعجبك أمسه فتكرمه ، ويغيظك يومه فلا تكاد تسيغه ، ولكلٍّ من هؤلاء شاهد من شعره يدلّك عليه ، وبينة من كلامه تحدثك عنه وتريك مكانه ، وما هذا الأدب قديمه وحديثه الاّ صورةٌ من ذلك المهيع الذى يقول فيه مسعود أخو ذى الرمّة :

ومهمهٍ فيه السّرابُ يلمح يدأب فيه القوم حتى يطلحوا
ثمّ يظلون كأن لم يبرحوا كأنهم أمسوا بحيث أصبحوا

السيد محمد توفيق البكرى
(١٢٨٧ — ١٣٥١ هـ)

البكرى

أول ما يُلقيه البكرى فى روعك وهو يطالعك بأدبه ، أنه شاعر فحل ، وكاتب كبير ، وإنك لتبقى معه فى هذه الحال ، وعلى هذه العقيدة ، وإن جال فى نفسك أو قام فى ناحية منها أنك مغلوب على رأيك ، أو مضطهد فى شعورك وحكمك .

فى أدب البكرى قوّة مستبدة عليها كثير من جلال الأدب ، وفيها شىء غير قليل من عظمته وكبريائه ، فأنت حين ترى فيه مكاناً للضعف لا تلبث أن تدفعك هذه القوّة الى الامام ، وتصيح فى وجهك بصوتها الذى يشبه هزيم الرعد : (سر ولا تقف) وإنك لتحبّ أن تسير ، وتكره أن تقف ، وإنّك لتظلمُ البكرى إذا ظننت أنه لم يمت غير أمس ، وأنه قد أدى رسالته ، واستكمل أدبه .

إن الفقيد العزيز لطويلُ العهد بالموت ، وان هذا الاثر الذى نراه اليوم من أدبه البارع ، لهو مثال مبتسر ، وصورة غير كاملة .

لقد كان والقلم فى يده ، وذلك اللسان الذّرب فى فمه ، يُعَدّ فى الصف الأوّل من رجال الادب ، وقد تطاول الزمن ، وتباعد المدى بينه وبين هؤلاء ، فمنهم من سبقه ، ومنهم من وقف معه ، ونام بجانبه ، غير قائم العذر ، ولا ناهض الحجة ، وما من مريةٍ قطّ فى أنه لولا ذلك الحدث الرائع الذى دفن قلمه وهو حىّ ، واعتقل لسانه قبل أن يعتقله الموت ، لاستوفى حقه من بدائع الفنّ ، ومحاسن الصناعة ، ولاكتسب أدبه القوىّ من المنعة والحصانة مايدفع بكلّ متهجم الى الوراء.

نظرة فى شعره

فى شعر البكرى من إشراق الديباجة ، وجودة السبك والصياغة ، وجزالة اللفظ والمعنى ، ما يدلك على شاعرية عالية ، وعبقرية طامحة ، وهو فى مقطعاته مولع بالمعانى المخترعة ، والمقاصد البديعة الاّ أنه مع كل هذا قليل الاحتراس فقد يقع فى الاخطاء اللغوية حيناً ، ويعمد الى ترديد ما قاله الاوائل حيناً آخر ، وقد يضطرب تارةً فى شعره ، فلا تظنّ به الاّ أنه قد أراد التجوّز ، أو تعمد التقصير ، ثقةً بنفسه ، وادلالا عليك . قال فى قصيدته التى نظمها فى الحرب اليونانية العثمانية لعهد السلطان عبد الحميد :

أما ويمين الله حلفةَ مُقسمٍ لقد قمت بالاسلام عن كُلّ مسلم

(مقسم) فى الشطر الاول من البيت لا معنى لها . فلو انه قال (حلفة صادق) مثلاً لكان أمثل ولكنها القافية . وهو يقول بعد هذا البيت :

فلولاك بعد الله أمست ديارُه بأيدى الاعادى مثل نهب مقسّم

و(مثل) فى الشطر الثانى من هـذا البيت أضعفت المعنى ، أو هى قد أفسدته ، والشأن أن يقال (أمست نهباً مقسماً) ولكن المانع ظاهر ، وهو مانع ضعيف لو أحسن نظم البيت ، قال :

له فى الاعادى حملةٌ يعرفونها وأكبرُ منها حملةٌ من تكرُّم

فى هذا البيتِ نَظَرٌ الى قول المتنبي :

هُمُ المحسنون الكرّ فى ساحة الوغى وأحسنُ منه كرُّهُمْ فى المكارم

ولك أن تقول بانه على كثب من قول ابن هانى :

ضَرّابُ هامِ الروم منتقماً ، وفى أعناقهم من جوده أعباءُ
تجرى أياديه التى أولاهمو فكأنها بين الدماء دماءُ
لولا انبعاثُ السيف، وهومُسلَّطٌ فى قتلهم ، قتلتهم النعماءُ !

قال :

وزجّوا جموعاً كالدَّبَى فى عديدها فألقاهمو فى جوف دهياء صيلم

لا يزال شعراء العرب يتنازعون تشبيه الجيوش بالدّبى فى كثرتها ، وهو عندهم كثير ، ومنه قول إياس بن قبيصة الطائى يصف كتيبة :

« ومبثوثةٍ بَثَّ الدَّبَى مسبطرّةٍ »

قال فى وصف الخيل :

ومن كُلّ ذيّالٍ كأنّ هُوِيَّهُ هُوِيُّ شهابٍ ، أو عُقابٍ محوّم

وقال نابغة بنى جعدة يصف فرسه :

فظَلَّ يجاريهم ، كأنّ هُوِيَّهُ هُوِيُّ قطاميٍّ من الطير أمعرا

ومثله قول ابن أبى سلمى فى فرسه :

فما سوذنيقٌ على مرِبأ خفيف الفؤاد حديد النَّظَرْ
رأى أرنباً سنحت بالفضاء فبادَرَها وَلَجَاتِ الخَمَرْ
بأسرع منها ، ولا مِنزعٌ يُقَمِّصُهُ رَكْضُهُ بالوَتَرْ

وقد درج البحترى على هذا الأثر فقال :

يهوى كما تهوى العقاب ، اذا رأت صيداً ، وينتصب انتصاب الاجدل

وهو كثير .

قال البكرى فى وصف الدرع :

ومن كلّ حصداء دلاصٍ كأنها على عاتق الاجناد بردةُ أرقم

وفى ذلك يقول محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى :

وعَلىَّ سابغةُ الذيولِ كأنها سِلْخٌ كسانيهِ الشجاعُ الارقمُ

وليس هـذا فحسب ، فأشعار العرب حافلة بهـذا التشبيه . وهذا شيخنا المعرى يقول :

كأثواب الاراقم مزّقتْها ... فخاطتها بأعينها الجرادُ

ويقول البكرى فى السوف :

وبيضٍ كلون الملح ، أمّا مُتونُها ... كنملٍ على نهْىٍ من الماء عُوَّمِ

أكثر القوم من هذا ، فقال المنتخل بن عويمر الهذلى فى سيفه :

« كَلَوْنِ الملحِ ضَرْبَتُهُ هَبِيرُ »

وقال قيس بن الاسلت :

« أبيضُ مثل الملح قطّاع »

ولحقهم المعرى فقال :

« ومشتهراتٍ أشبه الملحَ لَوْنُها »

هذا ما قيـل فى (الملح) ، وأكثر منه ما قيل فى (النمل) ، وحسبك ما قاله البحترى يصف سيفاً :

وكأنما سُود النمال وحمرها ... دبّت بأيدٍ فى قَراه وأرجُلِ

قال البكرى فى وصف المدافع :

ومن منجنيق يستطير شواظه ... بفُوّهةٍ فيـه بابٍ جهنّم

وقد ورد هذا البيت فى بعض الروايات على صورة أخرى وهى :

وَسُودٍ جِنِىّ كالاكامِ دوافعٍ ... بِحُمْرٍ كأشباهِ الصواعقِ رُجَّمِ

وفى كلتا الصورتين ما يشير الى قول بن هانىء فى أساطيل المعزّ الفاطمى :

إذا زفرتْ غيظاً ترامت بمارجٍ ... كما شبّ من نار الجحيم وقـودُ

فأفواههنّ الحاميـات صواعقٌ ... وأنفاسهنّ الزافراتُ حـديدُ

قال البكرى :

كأنّ نصـالَ البيض وسط عجاجها ... شِرارٌ تعالى فى دخانٍ مخيّم

وقال بشار بن برد :

كأنّ مُثارَ النقع فوق رءوسهم ... وأسيافنا ، ليلٌ تهاوَى كواكبه

وهو أبلغ وأظهر . ومن الاخطاء اللغوية فى هذه القصيدة قوله :

أمدّ لهـم فى الحـلم اعاً رحيبةً ... فزادوا طماحاً فى عُتوّ ومَـلاْم

يريد (مَدّ) وليست أمدّ فى معناها ، فانما يقال أمدّه بالمال أو بغيره اذا أعانه ويقال لؤم الرجل يلؤم لؤماً ومَلاْمةً ولآمةً لا غير ، أمّا المـلاْم فاللئيم أو من يعذر اللئام ، وقال :

أسال لجاج الأرض بالجند يلتوى كأغدرة الوديان فى كل مخرم

والوادى لا يجمع على وديان ، وقال :—

يطير قُشارىّ الحديد بأفقها بحبل وتين ، أو بكفٍّ ومعصم

القشر والقُشار واحدُ القشور ، فأمّا قشارىّ فلم ترد بهذا المعنى لا فى الافراد ولا فى الجمع ، ولعله أراد أن تقوم الياء مقام ياء النسبة ، وفى القصيدة أشياء أخرى يعرفها الناقد البصير .

للسيد البكرى قصيدة أخرى فى فصل الربيع يقول فى مطلعها :

أصبح وادى الغر قد أخضرَ كالسّيف الصّمصدى

فى البيت خلل من جهة التشبيه فهم انما يشبهون الماء اذا علته الخضرة بالسيف يعلوه الصدأ . وهذا واضح مستقيم ، أما تشبيه الوادى المخضرّ أو نحوه بهذا السيف فغير مقبول ولا متقارب . وقد تدوول هذا الوصف فأصبح من الصور الرثة فى أدبنا العربى ، واليك مايقوله المعرى فى جدول راكد :

تطاولَ عهدُ الواردين بمائهِ وعُطّل حتى صار كالصارم الصّدى

قال البكرى :

يسيل فى أصيله بفضةٍ وعسجدِ

ويقول المعرىّ :

تظنّ به ذوبَ اللّجين ، فان بدت له الشّمسُ أجرت فوق ذوبَ عسجد

قال البكرى :

هبّت به ريح الصّبا فعاد مثل المبرد

ويقول المعرى :

إلى بَرَدَى حتى تظلّ كأنها وقد كرعت فيه ، لَواَثِمُ مبرد

قال البكرى ، وقد تخطينا كثيراً من أبيات قصيدته اختصاراً للنقد :

كواكبٌ منثورةٌ كلؤلؤٍ مبدّدِ

ويقول المعرى :

تبيت النجوم الزهر فى حجراته شوارع مثل اللؤلؤ المتبدد

قال البكرى :

والفجر فى ظلامه مثل حسام مغمد
جُرّدَ منه بعضه والبعض لم يُجرّد

ويقول البحترى :

وليل كأنّ الصبحَ فى أخرياته حُشاشةُ سيفٍ ضمّ إفرندَه غمدُ

فأنت ترى معنى هذا البيت البارع شائعاً فى بيتىْ البكرى . وإنك اذا نظرت الى هذين البيتين من جهة الصناعة رأيت فيهما من الاضطراب والتواء المقصد

ما يسوءك ، وانّ فى ادخال أداة التعريف على كلمة (بعض) فى البيت الثانى لخطأ لغوياً ما به من خفاء ، ومن العيوب البيّنة فى هذه القصيدة قوله :

أحسُّ قومى أنهّم أحرارُ غَيْرُ أعْبُد

منع كلمة (احرار) من الصرف وما هى كذلك . ومما يعجبك من أدب البكرى قوله :

وما أذّن القوم لمّا أقا ... ا صلاة الجنازة يوم الوفاة
وأُذّن للطفل يوم الولا ... د ، فهذا الاذان لتلك الصلاة !

وقوله :

النّاس يخشون من جاه المليك وما ... لديه لولاهمو فى مُلكه جاه
كصانعٍ صَنَماً يوماً على يده ... وبعد ذلك وجوه ويخشاه !

وقوله :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمّةً ... فتنوء منه بفادح الاثقال
ظُلمُ الرعيّة كالعقاب لجهلها ... أَلَمُ المريض عقوبة الاهمال

القضية سواء فى قول البكرى وقول فيكتور هوجو : «لا يكون الحكام ذئاباً الا اذا كان الشعب من الخراف » .

رحم الله أغانا البكرى ، وجزاه عن الأدب خير الجزاء ما

احمد محرم

حافظ ابراهيم

أدبه ـ شخصيته

لست حين اكتب عن حافظ ابراهيم بالذى يطمع فى أن يوفيه حقه فان ذلك يتطلب وقتاً وبحثاً مستفيضين ، كما يتطلب توفراً على دراسته لا أدعيه . فكل الذى اريده بهذه الكلمة هو أن اذكر بعض ملاحظات عن أدب حافظ وشخصيته اكثرها قد علق بذهنى وقت أن كنت اسعد بمقابلة حافظ ابراهيم فيغمرنى بفيض حديثه العذب الممتع فيخيل الىّ اننى قد عرفت من شخصيته وادبه ما غاب عن الكثيرين ، وان كنت قد تبينت الآن — بعد أن مات حافظ وكتب فى موته كثيرون — ان الرجل كان هو هو فى حديثه معى ومع الآخرين .